الدرس الثاني: "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي قضية "الانتحال"

مقدمة

بعد أن ضاع الكثير من أشعار العرب، بدأ النقاد في تدوينه لأنه ديوان علمهم ومنتهى حكمهم، فتنبهوا إلى وجود أشعار نسبت لغير قائليها وإلى عصر غير العصر الذي قيلت فيه، وهو ما يعرف بظاهرة الانتحال والتي شغلت نقاد القرن الثاني هجري على رأسهم ابن سلام الجمحي في كتابه **"طبقات فحول الشعراء".**

1. نبذة عن الكاتب

هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي، ولد بالبصرة سنة 139ه، نشأ في بيت علم وثقافة، رواية وعالم بأخبار العرب وأشعارهم، أخذ العلم عن حمادة بن سلمة ومبارك بن فضالة...وغيرهم، أصيب بمرض في آخر حياته وتوفي سنة 231ه.

من مؤلفاته:

أ. بيوتات العرب
ب. غريب القرآن
ت. الفاضل في ملح الأخبار والأشعار

2. نبذة عن الكتاب

يمثل كتاب **"طبقات فحول الشعراء"** لابن سلام الجمحي أول كتاب في النقد الأدبي المنظم عند العرب، حيث نهج فيه الناقد منهجا علميا، حيث قسم الكتاب إلى قسمين مقدمة، ومضمون الكتاب. فكان القسم الأول المقدمة بمثابة وثيقة نقدية حملت في طياتها العديد من القضايا التي لها علاقة بالشعر، وكيف وثق العلماء راوية الشعر، وهذا ما جاء في كتابه:"ذكرنا العرب وأشعارهم، والمشهورين المعروفين من شعرائهم وفرسانها وأشرافها وأيامها"، وأثار فيها جملة من القضايا، أما القسم الثاني فهو الجزء التطبيقي على الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

3. أهم القضايا النقدية في الكتاب

عالج ابن سلام في كتابه العديد من القضايا منها:

أ. تعريف الشعر ولغته، وعده صناعة كبقية الصناعات له أهله المتخصصين فيه، يقول:"وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات".
ب. قسم الشعراء إلى طبقات، طبقات فحول الجاهليين والتي حوت عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء، ومثلها طبقات فحول الإسلام، وبينهما طبقة أصحاب المراثي وهم أربعة شعراء، وطبقة شعراء القرى العربية وهم اثنان وعشرون شاعرا، ثم طبقة شعراء اليهود وهم ثمانية شعراء، والجمع أربعة عشر ومائة شاعر.
ت. جعل معايير التي مكنته من تصنيف الشعر ثلاثة معايير: الكثرة، الجودة، تعدد الأغراض
ث. تعرض لقضية الصدق والكذب فها هو يصف زهير بن أبي سلمى بالصدق، فيقول:"كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"، في حين وصف كثير عزة بالتقول والكذب "وكان كثير يتقول".

ج. قضية الطبع والصنعة وقد عبرها عنها ابن سلام بمصطلح القريحة، يقول:"ولم يكن أوس بن مغراء إلى النابغة في قريحة الشعر"، فوصف شعر النابغة الذبياني بأنه لا تكلف فيه بخلاف زهير بن أبي سلمى الذي يهذب وينقح شعره قبل عرضه.

4. قضية الانتحال عند ابن سلام

تطرق ابن سلام إلى ظاهرة الانتحال، ووقف عند أسبابها السياسية والاجتماعية، وبين خطورتها على الشعر العربي القديم، فما هو الانتحال لغة واصطلاحا؟.

أ. تعريف الانتحال

1. لغة

ورد في لسان العرب لابن منظور:"نحل جسمه، ونحل، ينحل، وينحل نحولا، فهو ناحل: ذهب من مرض أو سفر والفتح أفصح. وانتحل فلان شعر فلان: إذا ادعاه أنه قائله، وتنحله ادعاه وهو لغيره، ونحله القول ينحله نحلا: نسبه إليه، ونحلته القول أنحله نحلا بالفتح: إذا أضفت إليه قولا قاله غيره".

2. اصطلاحا

ورد في معجم المصطلحات الانتحال:"هو أن يأخذ الشاعر كلام غيره، بعد علمه بنسبته له، بلفظه كله ومن غير تغيير لنظمه، أو أن يأخذ المعنى، وتبدل الكلمات كلها أو بعضها بما يرادفها".

شغلت قضية الانتحال النقاد قديما وحديثا، ومن بين من تحدث عنها باستفاضة ابن سلام الجمحي الذي قال:"وفي الشعر مصنوع مفتعل كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، ولم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء"، فابن سلام يؤكد أن هذا الشعر الموضوع لا فائدة منه، ولا يحتج به، ولم يؤخذ بالسماع.

ب. أسباب الانتحال

1. عامل القبائل التي تريد زيادة شعرها أمام القبائل الأخرى لأغراض الفخر، خاصة بعد أن انشغل العرب بالإسلام، وبحفظ القرآن والفتوحات الإسلامية، يقول ابن سلام:"فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير".
2. عامل الرواة الوضاعون أمثال داوود بن متمم بن نويرة، وحمادة الرواية وابن إسحاق صاحب كتاب السيرة النبوية. فقال ابن سلام في حمادة الراوية:"كان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار"، أما ابن إسحاق الذي أورد في كتابه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أشعارا لعاد وثمود حتى لآدم، فرد عليه ابن سلام بأدلة قرآنية على أن هذه الأمم بادت ولم يبق لها أثر قال تعالى:**"وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية(6) سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية(7) فهل ترى لهم من باقية(8)الحاقة**

5. في ميزان النقد

رغم أن ابن سلام أجاد في هذا الكتاب إلا أنه أخذ عليه:

أ. أسقط ابن سلام ذكر بعض كبار الشعراء أمثال عمر بن أبي ربيعة، والكميت بن زيد الأسدي، وبشار بن برد، أبي نواس...وغيرهم.

ب. ترتيبه للشعراء داخل الطبقة دون تعليله سبب الترتيب.
ت. عدم تعليله لذكر أصحاب المراثي في طبقة مستقلة في حين لم يذكر باقي الأغراض.

في الأخير يمكن القول أن كتاب طبقات الشعراء يعد من أوائل الكتب التي ألفت في النقد العربي القديم، أراد من خلالها الناقد أن يطرح قضية جوهرية وهي الانتحال ويعالجها معالجة تتسم بالعلمية بتقديمه الأدلة والحجج، لكي يخلص الشعر العربي من كل ما هو مصنوع ومفتعل، وذلك بالرجوع إلى الرواة العلماء والأخذ منهم، أمثال الأصمعي، خلف الأحمر، سلام بن عبيدة الجمحي، سيبويه، أبو عمر بن العلاء...وغيرهم. إلا أن هذه الظاهرة لم تتوقف عند ابن سلام بل طرقها العديد من النقاد العرب أمثال: الجاحظ، وطه حسين و مستشرقين أمثال: نولدكه، مارجليوث...وغيره.